المبحث الثالث
في نزول القرآن

هذا مبحث مهمٌّ في علوم القرآن بل هو أهم مباحثه جميعاً، لأن العلم بنزول القرآن أساسٌ للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله، وأساسٌ للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق. ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعدُ في علوم القرآن. فلا جرم أن يتصدَّرها جمعاء، ليكون من تقريره وتحقيقه، سبيلٌ إلى تقريرها وتحقيقها. وإلا فكيف يقوم البناء على غير أساس ودِعام؟

ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز، نتكلم ـ إن شاء الله ـ على معنى نزول القرآن، ثم على مرات هذا النزول، ودليل كل نزول، وكيفيته، وحكمته، ثم على الوحي وأدلته العقلية والعلمية، مع دفع الشبهات الواردة في ذلك المقام.

معنى نزول القرآن

جاء التعبير بمادة نزول القرآن وما تصرَّف منها في الكتاب والسنة، ومن أمثلته قوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[1]. وقوله ﷺ: «إنَّ هذا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[2]. وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر كما سيأتي.

لكنَّ النزول في استعمال اللغة يطلق ويراد به الحلول في مكان والأوِيُّ به ومنه قولهم «نزل الأمير المدينة». والمتعدِّي منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير في مكان وإيواءَه به. ومنه قوله جلَّ ذكره ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾[3]

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق: ٦، وفضائل القرآن: ٥، والاستتابة: ٩، والتوحيد: ٥٣. ومسلم في المسافرين ٢٦٤، وأبو داود في الوتر: ٢٢. والترمذي في القرآن: ٥، والإمام أحمد في المسند: ١/ ٢٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٢٩.

ويطلق النزول إطلاقاً آخر في اللغة على انحدار الشيء من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ نحو: «نَزَلَ فُلَانٌ مِنَ الجبلِ». والمتعدِّي منه يكون معناه تحريك الشيء من عُلْو إلى سُفْلٍ. ومنه قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1].

ولا ريب أن كلا هذين المعنين لا يليق إرادته هنا في إنزال الله للقرآن، ولا في نزول القرآن من الله، لما يلزم هذين المعنيين من المكانية والجسمية. والقرآن ليس جسماً حتى يحلَّ في مكان أو ينحدر من علو إلى سفل، سواء أردنا به الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الغيبية الأزلية، أم أردنا به نفس تلك الكلمات، أم أردنا به اللفظ المعجز؛ لما علمت من تنزُّه الصفة القديمة ومتعلَّقها وهو الكلمات الغيبية عن الحوادث وأعراض الحوادث، ولما تعرفه من أن الألفاظ أعراض سيالة تنقضي بمجرد النطق بها، كما يقولون.

إذن فنحن بحاجة إلى التجوُّز، والمجاز بابه واسع وميدانه فسيح. وليكن المعنى المجازي لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته. أما على أن المراد بالقرآن الصفة القديمة أو متعلقها، فإنزاله الإعلام به بواسطة ما يدل عليه من النقوش بالنسبة لإنزاله في اللوح المحفوظ وفي بيت العزة في السماء الدنيا، وبواسطة ما يدل عليه من الألفاظ الحقيقية بالنسبة لإنزاله على قلب النبي ﷺ، والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي اللزوم؛ لأن إنزال شيء إلى شيء يستلزم إعلام من أنزل إليه ذلك الشيء به إن كان عاقلاً، ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق به مطلقاً، وإذن فالمجاز مرسل.

وأما على أن المراد بالقرآن اللفظ المعجز، فمعنى إنزاله الإعلام به أيضاً، ولكن بوساطة إثباته هو أو إثبات دالِّه، فإثباته هو بالنسبة لإنزاله على قلب النبي ﷺ، وإثبات دالِّه بالنسبة إلى اللوح المحفوظ وبيت العزة، والعلامة اللزوم كذلك، والمجاز مرسل كسابقه.

ويمكن أن يكون هذا التجوُّز من قبيل الاستعارة التصريحة الأصلية، بأن يُشَبَّهَ إعلام السيد لعبده بإنزال الشيء من علو إلى سفل، بجامع أن في كل من طرفي التشبيه

(١) سورة طه، الآية: ٥٣.

صدوراً من جانب أعلى إلى جانب أسفل، وإن كان العلو والسفل في وجه الشبه حسياً بالنسبة إلى المشبه به، ومعنوياً بالنسبة إلى المشبه.

وأنت خبير بأن النزول مطاوع الإنزال، فما يجري من التجوُّز في أحدهما يجري نظيره في الآخر. وقل مثل ذلك في التنزيل والتنزل.

وكأن وجه اختيار التعبير بمادة الإنزال وما تصرَّف منها أو التقى معها، هو التنويه بشرف ذلك الكتاب، نظراً إلى ما تشير إليه هذه المادة من علوٍّ صاحب هذا الكتاب المنزل علواً كبيراً، كما قال تعالى في فاتحة سورة الزخرف: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾[1].

ثم إن تأويل الإنزال بالإعلام على ما رأيت هو الأقرب والأوفق بالمقام، وذلك من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن تعلق الكلام تعلق دلالة وإفهام، ولا ريب أن القرآن كلام، فتأويل إنزاله بالإعلام، رجوعٌ إلى ما هو معلوم من تعلّقه، ومفهوم من تحققّه.

ثانيها: أن المقصود من ثبوت القرآن في اللوح وفي سماء الدنيا وفي قلب النبي ﷺ، هو إعلام الخلق في العالَمَين العلوي والسفلي بما شاء الله دلالة البشر عليه من هذا الحق.

ثالثها: أن تفسير الإنزال بالإعلام، ينسجم مع القرآن بأي إطلاق من إطلاقاته، وعلى أيٍّ تنزُّل من تنزلاته.

٢ ـ تنزلات القرآن

شرَّف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزُّلات:

١ ـ التنزُّل الأول إلى اللوح المحفوظ. ودليله قوله الله سبحانه: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾[2]. وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقت لا

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١ ـ ٤.
(٢) سورة البروج، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢.

يعلمهما إلا الله تعالى، ومن أطلعه على غيبه. وكان جملة لا مفرقاً، لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق، ولا صارف عنه. ولأن أسرار تنجيم القرآن على النبي ﷺ لا يعقل تحققها في هذا التَّنزُّل.

وحكمة هذا النزول، ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه، وإقامته سجلاً جامعاً لكل ما قضى الله وقدَّر، وكل ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين. فهو شاهد ناطق، ومظهر من أروع المظاهر، الدالة على عظمة الله، وعلمه، وإرادته، وحكمته، وواسع سلطانه وقدرته، ولا ريب أن الإيمان به يُقوِّي إيمان العبد بربه من هذه النواحي، ويبعث الطمأنينة إلى نفسه، والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه، من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه، وسائر أقضيته وشؤونه في عباده، كما يحمل الناس على السكون والرضا، تحت سلطان القدر والقضاء، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرّائها وسرّائها، كما قال ـ جلّ شأنه ـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[1] اهـ من سورة الحديد. وللإيمان باللوح وبالكتابة فيه، أثرٌ صالح في استقامة المؤمن على الجادَّة، وتفانيه في طاعة الله ومراضيه، وبعده عن مساخطه ومعاصيه، لاعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه. مسجَّلة لديه في كتابه. كما قال ـ جلَّ ذكره: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[2] اهـ من سورة القمر.

ب ـ التنزُّل الثاني للقرآن كان هذا التنزل الثاني إلى بيت العزَّة في السماء الدنيا، والدليل عليه قوله سبحانه في سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[3]. وفي سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[4]. وفي سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[5].

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) سورة القمر، الآية: ٥٣.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٣.
(٤) سورة القدر، الآية: ١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

دلّت هذه الآيات الثلاثة على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة أخذاً من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر أخذاً من آية سورة القدر، وهي من ليالي شهر رمضان أخذاً من آية البقرة. وإنما قلنا ذلك جَمْعاً بين هذه النصوص في العمل بها، ودفعاً للتعارض فيما بينها. ومعلوم بالأدلة القاطعة ـ كما يأتي ـ أن القرآن أنزل على النبي ﷺ مفرقاً لا في ليلة واحدة، بل في مدى سنين عدداً، فتعين أن يكون هذا النزول الذي نوّهت به هذه الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النزول على النبي ﷺ. وقد جاءت الأخبار الصحيحة مُبَيِّنَةً لمكان هذا النزول وأنه في بيت العزّة من السماء الدنيا، كما تدل الروايات الآتية:

١ ـ أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «فُصِلَ القرآن من الذكرِ فَوُضِعَ في بيتِ العزّةِ من السماء الدنيا فجعلَ جبريلُ يَنزِلُ بهِ على النبي ﷺ.

٢ ـ وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي من طريق داود بن أبي هند عن عِكرِمة عن ابن عباس أنه قال: «أُنزِلَ القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا ليلةَ القَدْر، ثم أنزلَ بعد ذلك في عشرينَ سنة» ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1]. ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[2].

٣ ـ وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكانَ الله ينزلهُ على رسوله ﷺ بعضه في إثْرِ بعضٍ».

٤ ـ وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أَوْقَعَ في قلبي الشكَّ قولُه تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[3] وقولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[4]. وهذا أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم، وصفر؛ وشهر ربيع. فقال ابن عباس: «إنه أنزل في رمضان في

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٤) سورة القدر، الآية: ١.

ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رِسْلاً في الشهور والأيام». قال أبو شامة: رسلاً أي رفقاً وعلى مواقع النجوم أي على مثل مساقطها؛ يريد أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقاً، يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق.

هذه أحاديث أربعة من جملة أحاديث ذكرت في هذا الباب، وكلها صحيحة كما قال السيوطي، وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس، غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، لما هو مقرَّرٌ من أن قول الصحابي ما لا مجال للرأي فيه ولم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات، كلمة حكم المرفوع. ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تُعرف إلاَّ من المعصوم، وابن عباس لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فثبت الاحتجاج بها.

وكان هذا النزول جملةً واحدة في ليلة واحدة هي ليلة القدر كما علمت؛ لأنه المتبادر من نصوص الآيات الثلاث السابقة، وللتنصيص على ذلك في الأحاديث التي عرضناها عليك. بل ذكر السيوطي أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العزَّة في السماء الدنيا.

وهناك قول ثان بنزول القرآن إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين ينزل في كل ليلة قدر منها ما يقدِّر الله إنزالَه في كل السنة، ثم ينزل بعد ذلك منجَّماً في جميع السنة على النبي ﷺ.

وَثَمَّةَ قول ثالث: أنه ابتدىء إنزاله في ليلة القدر؛ ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النبي ﷺ. وكأن صاحب هذا القول ينفي النزول جملة إلى بيت العزَّة في ليلة القدر.

وذكروا قولاً رابعاً أيضاً هو أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظة نجَّمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجَّمه على النبي ﷺ في عشرين سنة.

ولكن هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة بمعزل عن التحقيق، وهي محجوجة بالأدلة التي سُقناها بين يديك تأييداً للقول الأول.

والحِكمة في هذا النزول، على ما ذكره السيوطي نقلاً عن أبي شامة ـ هي تفخيم أمره (أي القرآن) وأمر من نزل عليه، بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، وبإنزاله مرتين، مرة جملة ومرة مفرَّقاً. بخلاف الكتب السابقة، فقد كانت تنزل جملةً مرة واحدة.

وذكر بعضهم أن النزول إلى السماء الدنيا إلهاباً لشوق النبي ﷺ إليه على حَدِّ قول القائل:

«وأعظم ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دنَت الخيامُ من الخيام»

أقول: وفي تعدد النزول وأماكنه، مرةً في اللوح، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي ﷺ: في ذلك التعدد مبالغةٌ في نفي الشك عن القرآن وزيادةٌ للإيمان به، وباعثٌ على الثقة فيه، لأن الكلام إذا سُجِّلَ في سِجِلَّات متعددة، وصحَّت له وجودات كثيرة، كان ذلك أنفى للريب عنه وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به، مما لو سجِّل في سجلٍّ واحد، أو كان له وجود واحد.

جـ ـ التنزُّل الثالث للقرآن هذا هو واسطة عقد التنزلات، لأنه المرحلة الأخيرة التي منها شعَّ النور على العالم؛ ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بوساطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي ﷺ. ودليله قول الله تعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[1].

كيفية أخذ جبريل للقرآن، وعمن أخذ؟

هذا من أنباء الغيب. فلا يطمئن الإنسان إلى رأي فيه إلا إن ورد بدليل صحيح عن المعصوم، وكل ما عثرنا عليه أقوال منثورة هنا وهناك، نجمعها لك فيما يأتي مع إبداء رأينا في كل منها:

أولها: قال الطيبي: «لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقَّفه تلقُّفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به على النبي ﷺ فيلقيه إليه» اهـ.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ ـ ١٩٥.

وأنت خبير بأن كلمة (لعل) لا تشفي غليلاً، ولا تهدينا إلى المقصود سبيلاً، ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً.

ثانيها: حكى الماوردي أن الحفظة نجَّمت القرآن على جبريل في عشرين ليلةً؛ وأن جبريل نجَّمه على النبي ﷺ عشرين سنة اهـ ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الحفظة نجوماً عشرين. ولكنا لا نعرف لصاحب هذا الرأي دليلاً ولا شبه دليل.

ثالثها: قال البيهقي في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[1] «يريد ـ والله أعلم ـ إنا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع» اهـ. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعاً. وذلك فيما أرى أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله لا من ناحية تأويل النزول في الآية بابتداء النزول. ويؤيده ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سَمْعان مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «إذا تكلَّم الله بالوحي أخذت السماءَ رجفةٌ شديدةٌ من خوف الله، فإذا سمع أهلُ السماء صَعِقوا وخرُّوا سجَّداً فيكون أولهم يرفعُ رأسَهُ جبريل، فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة فكلما مرَّ بسماء سأله أهلُها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمر».

وأيًّا ما تكن هذه الأقوال، فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض، ما دمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده.

ما الذي نزل به جبريل؟

ولتعلم في هذا المقام، أن الذي نزل به جبريل على النبي ﷺ هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمد في إنشائها وترتيبها، بل الذي رتَّبها أولاً هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك تنسب له دون سواه، وإن نطق بها جبريل ومحمد، وملايين الخلق من بعد جبريل ومحمد، من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة. وذلك كما ينسب الكلام البشري إلى من أنشأه ورتَّبه في نفسه أولاً دون غيره، ولو نطق به آلاف الخلائق، في آلاف الأيام والسنين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فالله ـ جلَّت حكمته ـ هو الذي أبرز ألفاظ القرآن وكلماته مرتبة على وَفْق ترتيب

---

(١) سورة القدر، الآية: ١.

كلماته النفسية لأجل التفهيم والتفهُّم، كما نبرز نحن كلامنا اللفظي على وفق كلامنا النفسي لأجل التفهيم والتفهم، ولا ينسب الكلام بحال إلا إلى من رتَّبه في نفسه أولاً، دون من اقتصر على حكايته وقراءته، ولذلك لا يجوز إضافة القرآن على سبيل الإنشاء إلى جبريل أو محمد، ولا لغير جبريل ومحمد، كما لا يجوز نسبة كلام أنشأه شخص ورتَّبه في نفسه أولاً إلى شخص آخر حكاه وقرأه حين اطَّلع عليه أو سمعه.

وقد أسَفَّ بعضُ الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن، والرسول يعبر عنها بلغة العرب. وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحي إليه المعنى فقط وكلاهما قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع، ولا يساوي قيمة المداد الذي يكتب به. وعقيدتي أنه مدسوسٌ على المسلمين في كتبهم. وإلا فكيف يكون القرآن حينئذٍ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبريل؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله واللفظ ليس لله؟ مع أن الله يقول: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[1]، إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله.

والحق أنه ليس لجبريل في هذا القرآن سوى حكايته للرسول وإيحائه إليه، وليس للرسول ﷺ في هذا القرآن سوى وَعْيه وحفظه، ثم حكايته وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره، ثم تطبيقه وتنفيذه. نقرأ في القرآن نفسه أنه ليس من إنشاء جبريل ولا محمد نحو: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾[2]. ونحو: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾[3]. ونحو ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾[4]. ونحو: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾[5].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.
(٢) سورة النمل، الآية: ٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.
(٤) سورة يونس، الآية: ١٥.
(٥) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤ ـ ٤٧.

ثم إن ما ذكرناه هو تحقيق ما نزل على النبي ﷺ من القرآن، وإن كان قد نزل عليه أيضاً غير القرآن؛ نقل السيوطي عن الجويني أنه قال: «كلام الله المنزل قسمان:

قسم: قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مرسل إليه: إن الله يقول افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا، ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قاله ربه. ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة، واجمع جندك للقتال، فإن قال الرسول: يقول لك الملك: لا تتهاون في خدمتي، ولا تترك الجند يتفرق، وحُثَّهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة.

وقسم آخر: قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين، ويقول اقرأه على فلان، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً» اهـ.

قال السيوطي بعد ذلك. قلت: القرآن هو القسم الثاني، والقسم الأول هو السُّنَّة. كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى لأن جبريل أداها بالمعنى. ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أدَّى القرآن باللفظ، ولم يُبَحْ له أداؤه بالمعنى. والسرُّ في ذلك أن المقصود منه التعبُّد بلفظه والإعجاز به، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وأنَّ تحت كل حرف منه معاني لا يُحاط بها كثرةً، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه. والتخفيف على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحَى به، وقسم يروونه بالمعنى. ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشقّ، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف فتأمل اهـ.

أقول وهذا كلام نفيس، بيد أنه لا دليل أمامنا على أن جبريل كان يتصرف في الألفاظ الموحاة إليه في غير القرآن. وما ذكره الجويني فهو احتمال عقلي لا يكفي في هذا الباب. ثم إن هذا التقسيم خلا من قسم ثالث للكتاب والسنة، وهو الحديث القدسي الذي قاله الرسول ﷺ حاكياً عن الله تعالى، فهو كلام الله تعالى أيضاً، غير أنه ليست فيه خصائص القرآن التي امتاز بها عن كل ما سواه. ولله تعالى حكمة في أن يجعل من كلامه المنزل معجزاً وغير معجز، لمثل ما سبق في حكمة التقسيم الآنف،

من إقامة حجة للرسول ولدين الحق بكلام الله المعجز، ومن التخفيف على الأمة بغير المعجز، لأنه تصح روايته بالمعنى، وقراءة الجنب وحمله له ومسه إياه، إلى غير ذلك.

وصفوة القول في هذا المقام أن القرآن أوحيت ألفاظه من الله اتفاقاً، وأن الحديث القدسي أوحيت ألفاظه من الله على المشهور، والحديث النبوي أوحيت معانيه في غير ما اجتهد فيه الرسول والألفاظ من الرسول ﷺ. بَيْدَ أن القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبد به ووجوب المحافظة على أدائه بلفظه ونحو ذلك، وليس للحديث القدسي والنبوي شيء من هذه الخصائص. والحكمة في هذا التفريق أن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن، فلو أبيح أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه، وكان مظنة للتغير والتبديل، واختلاف الناس في أصل التشريع والتنزيل. أما الحديث القدسي والحديث النبوي فليست ألفاظهما مناط إعجاز، ولهذا أباح الله روايتهما بالمعنى، ولم يمنحهما تلك الخصائص والقداسة الممتازة التي منحها القرآن الكريم، تخفيفاً على الأمة، ورعاية لمصالح الخلق في الحالين من مَنْحٍ ومَنْعٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾[1].

مدة هذا النزول

وابتدأ هذا الإنزال من مبعثه عليه الصلاة والسلام، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة، وتُقدَّر هذه المدة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً، تبعاً للخلاف في مدة إقامته ﷺ في مكة بعد البعثة، أكانت عشر سنين أم ثلاث عشرة أو خمس عشرة سنة. أما مدة إقامته بالمدينة فعشر سنين اتفاقاً. كذلك قال السيوطي.

ولكن بعض محققي تاريخ التشريع الإسلامي يذكر أن مدة مقامه ﷺ بمكة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ رمضان سنة ٤١ من مولده الشريف إلى أول بيع الأول سنة ٥٤ منه. أما مدة إقامته في المدينة بعد الهجرة فهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ من مولده إلى تاسع ذي الحجة سنة ٦٣ منه. ويوافق ذلك سنة عشر من الهجرة. وهذا التحقيق قريب من القول بأن مدة إقامته ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة وفي المدينة عشر سنين، وأن مدة الوحي بالقرآن ثلاثة وعشرون عاماً.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٥.

ولكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة؛ ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر، على حين أنها ثابتة في الصحيح. ثم جرى فيه على أن ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة القدر على بعض الآراء، غير أنه يخالف المشهور الذي يؤيده الصحيح. ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر ما نزل من القرآن هو آية ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] وذلك في تاسع ذي الحجة سنة عشر من الهجرة، وسترى في مبحث آخر ما نزل من القرآن أن هذا المذهب غير صحيح.

دليل تنجيم هذا النزول

والدليل على تفرق هذا النزول وتنجيمه، قول الله ـ تعالت حكمته ـ في سورة الإسراء: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[2] وقوله في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[3]. روي أن الكفار من يهود ومشركين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جملةً، فأنزل الله هاتين الآيتين رَدًّا عليهم، وهذا الردُّ يدلُّ على أمرين:

أحدهما: أن القرآن نزل مفرقاً على النبي ﷺ. والثاني: أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملةً، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً.

ووجه الدلالة على هذين الأمرين. أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملةً، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفرقاً، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقاً كالقرآن لردَّ عليهم بالتكذيب، وبإعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما ردَّ عليهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[4]. حين طعنوا على

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة الفرقان، الآيتان: ٣٢ ـ ٣٣.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.

الرسول وقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[1]. اهـ من سورة الفرقان.

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن

لتنجيم نزول القرآن الكريم أسرارٌ عدَّة وحِكَمٌ كثيرة، نستطيع أن نُجْمِلَهَا في أربَع حِكَم رئيسية:

الحكمة الأولى:

تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وتقوية قلبه، وذلك من وجوه خمسة:

الوجه الأول: أن في تجدُّد الوحي، وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسوله ﷺ، سروراً يملأُ قلب الرسول، وغبطة تشرح صدره، وكلاهما يتجدَّدُ عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلٰهية، وتعهد مولاه إياه في كل نَوْبَةٍ من نَوْباتِ هذا النزول.

الوجه الثاني: أن في التنجيم تيسيراً عليه من الله في حفظه وفهمه، ومعرفة أحكامه وحِكَمِه، وذلك مُطْمَئِنٌ له على وَعْي ما يُوحَى إليه حفظاً وفهماً، وأحكاماً وحِكَماً، كما أن فيه تقويةً لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله.

الوجه الثالث: أن في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجَّم معجزةً جديدة غالباً، حيث تحداهم كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نُوَب التنزيل، فظهر عجزهم عن المعارضة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت. ولا شك أن المعجزة تشدّ أزْرَه وتُرْهِفُ عزمه، باعتبارها مؤيِّدةً له ولحزبه. خاذلةً لأعدائه ولخصمه.

الوجه الرابع: أن في تأييد حقه ودحض باطل عدوه ـ المرة بعد الأخرى ـ تكراراً للذة فوزه وفلجه بالحق والصواب. وشهوده لضحايا الباطل في كل مهبطٍ للوحي والكتاب. وإنّ كلَّ ذلك إلا مشجِّع للنفس مقوٍّ للقلب والفؤاد. والفرق بين هذا الوجه والذي قبله، هو الفرق بين الشيء وأثره، أو الملزوم ولازمه، فالمعجزة من حيث إنها قوة للرسول ومؤيدة له مطمئنة له ومثبتة لفؤاده، بقطع النظر عن أثر انتصاره وهزيمة

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧.

خصمه بها. ثم إن هذا الأثر العظيم وحده مطمئن لقلبه الكريم ومثبت لفؤاده أيضاً، أشبه شيء بالسلاح: وجوده في يد الإنسان مُطمئِن له ولو لم يستعمله في خصمه ثم انتصار الإنسان وهزيمة خصمه به إذا أعمله فيه مُطَمئن للفؤاد مريح للقلب مرة أخرى.

الوجه الخامس: تعهُّد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يُهَوِّنُ عليه هذه الشدائد. ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تَحْدُث في أوقات متعدِّدة، فلا جرم كانت التسلية تحدث هي الأخرى في مرات متكافئة. فكلما أحرجه خصمه، سلاَّه ربه. وتجيء تلك التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين، التي لها في القرآن عَرْضٌ طويل، وفيها يقول الله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1] من سورة هود. وتارة تجيءُ التسلية عن طريق وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد والحفظ، كما في قوله سبحانه في سورة الطور: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2] وقوله في سورة المائدة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[3] ونحو ما في سورتي الضحى وألم نشرح من الوعود الكريمة، والعطايا العظيمة. وطوراً تأتيه التسلية عن طريق إبعاد أعدائه وإنذارهم نحو قوله تعالى في سورة القمر: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[4] وقوله سبحانه في سورة فصلت: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[5]. وطوراً آخر ترد التسلية في صورة الأمر الصريح بالصبر نحو قوله جلَّ شأنه في سورة الأحقاف: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[6] أو في صورة النهي عن التفجُّع عليهم؛ والحزن منهم؛ نحو قول الله في سورة فاطر: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾[7] ونحو قوله سبحانه في خواتم سورة النحل: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[8].

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة الطور، الآية: ٤٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٤) سورة القمر، الآية: ٤٥.
(٥) سورة فصلت، الآية: ١٣.
(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٧) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٨) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

ومن موارد تسلية الله لرسوله أن يخوِّفه عواقب حزنه من كفر أعدائه نحو: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾[1] في فاتحة سورة الشعراء. ومنها أن يؤيسه منهم ليستريح ويتسلَّى عنهم نحو: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦﴾[2] من سورة الأنعام.

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة بوجوهها الخمسة تحت قول الله في بيان الحكمة من تنجيم القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[3] من سورة الفرقان.

الحكمة الثانية:

التدرُّج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملاً. وينضوي تحت هذا الإجمال أمور خمسة أيضاً:

أولها: تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية، وهي كما علمت كانت أمَّة أمِّيَّة. وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، وكانت مُشْتَغِلَة بمصالحها المعاشية، وبالدفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم، فلو نزل القرآن جملةً واحدة لعجزوا عن حفظه، فاقتضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرقاً ليسهُل عليهم حفظه، ويتهيَّأ لهم استظهاره.

ثانيها: تسهيل فهمه عليهم كذلك، مثل ما سبق في توجيه التيسير في حفظه.

ثالثها: التمهيد لكمال تخلِّيهم عن عقائدهم الباطلة، وعباداتهم الفاسدة وعاداتهم المرذولة. وذلك بأن يُراضوا على هذا التخلِّي شيئاً فشيئاً، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئاً، فكلما نجح الإسلام معهم في هدم باطل، انتقل بهم إلى هدم آخر، وهكذا يبدأ بالأهم ثم بالمهم، حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهَّرهم منها وهم لا يشعرون بَعَنَتٍ ولا حرج، وفطَمَهُمْ عنها دون أن يَرْتَكِسوا في

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣١.

سابق فتنةٍ أو عادة. وكانت هذه سياسةً رشيدة، لا بد منها في تربية هذه الأمة المجيدة، لا سيما أنها كانت أبيَّة معاندة، تتحمَّس لموروثاتها، وتستميت في الدفاع عما تعتقده من شرفها؛ وتتهوَّر في سفك الدماء وشَنِّ الغارات، لأتفه الأسباب.

رابعها: التمهيد لكمال تحلِّيهم بالعقائد الحقة، والعبادات الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة. ولهذا بدأ الإسلام بفطامهم عن الشرك والإباحة، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء، من جزاء ما فتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد، وبراهين البعث بعد الموت، وحُجَج الحساب والمسؤولية والجزاء. ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة، وثنَّى بالزكاة وبالصوم في السنة الثانية من الهجرة، وختم بالحج في السنة السادسة منها. وكذلك كان الشأن في العادات: زجرهم عن الكبائر وشدَّد النكير عليهم فيها. ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرَّج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً فيهم كالخمر... تدرُّجاً حكيماً حقَّق الغاية، وأنقذهم من كابوسها في النهاية. وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطَّة المُثْلى أبعد نظراً، وأهدى سبيلاً، وأنجح تشريعاً، وأنجع سياسةً، من تلكم الأمم المتمدنة المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس، وفشلت أمرَّ فشل. وما عهد أمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد.!

أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشعوب، وتهذيب الجماعات، وتربية الأمم؟ بلى، والتاريخ على ذلك من الشاهدين!!

خامسها: تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين، بسبب ما كان يقصُّه القرآن عليهم الفَيْنةَ بعد الفَينة والحينَ بعد الحين، من قصص الأنبياء والمرسلين وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين، وما وعد الله به عباده الصالحين، من النصر والأجر والتأييد والتمكين. والآيات في ذلك كثيرة حسبك منها قول العليِّ الكبير في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1]. وقد

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

صدق الله وعده، ونصر عبده وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1].

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثانية بما انضوى تحتها في قول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[2] كما يمكن أن يُفسر بها قوله تعالى في سورة الفرقان في بيان أسرار التنجيم ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[3] باعتبار أن التنوين للتعظيم إشارةً إلى المعاني المنطوية تحت هذا الترتيل.

الحكمة الثالثة:

مُسَايَرَةُ الحوادث والطوارىء في تجدُّدها وتفرقها، فكلما جدَّ منهم جديد، نزل من القرآن ما يناسبه، وفصَّل الله لهم من أحكامه ما يوافقه. وتنتظم هذه الحكمة أموراً أربعة:

أولها: إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول ﷺ. سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته. كما قال الله تعالى في جواب سؤال أعدائه إياه. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[4] في سورة الإسراء. وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾[5] إلخ الآيات في هذا الموضوع من سورة الكهف. أم كانت لغرض التنوُّر ومعرفة حكم الله كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[6]. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾[7].

ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت تُرفع إلى النبي ﷺ في أوقات مختلفة، وعلى

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٨٣.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

نَوْباتٍ متعدِّدة، حاكيةً أنهم سألوا ولا يزالون يسألون. فلا بدع أن ينزل الجواب عليها كذلك في أوقاتها المختلفة، ونَوْباتها المتعدِّدة.

ثانيها: مُجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حُكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها. ومعلومٌ أن تلك الأقضية والوقائع لم تقع جملةً، بل وقعت تفصيلاً وتدريجاً، فلا مناص إذن من فصْل الله فيها بنزول القرآن على طبقها تفصيلاً وتدريجاً. والأمثلة على هذا كثيرة، منها قوله سبحانه في سورة النور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[1] إلى قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[2] وهُنَّ عشر آيات نزلن في حادث من أروع الحوادث: هو اتهام السيدة الجليلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالإفك. وفيها دروس اجتماعية لا تزال تُقرأ على الناس، كما لا تزال تُسَجِّل براءة هذه الْحَصَانِ الطاهرة من فوق سبع سموات.

ومن الأمثلة قولُه تعالى في مُفتتح سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾[4] وهنَّ ثلاث آيات نزلن عندما رفعت خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ شكواها إلى رسول الله ﷺ من أن زوجها أوْسَ بن الصَّامِت ظَاهَرَ منها، وجادلت الرسولَ بأن معها صبيةً صغاراً إن ضَمَّتْهُم إلى زوجها ضاعوا، وإن ضمَّتهم إليها جاعوا.

ثالثها: لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب في الوقت نفسه. ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت في أزمانٍ متفرقة، فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل في إصلاحها، متكافئاً معها في زمانها. اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[5] إلى آيات كثيرة بعدها، وكلها نزلت في غزوة أحد إرشاداً

(١) سورة النور، الآية: ١١.
(٢) سورة النور، الآية: ٢٦.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٢١.

للمسلمين إلى مواضع أخطائهم في هذا الموقف الرهيب والمأزق العصيب. وكذلك اقرأ قوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[1] وهي آياتٌ تردَع المؤمنين عن رذيلة الإعجاب والاغترار في يوم من أيام الله، وتلفت نظرهم إلى مقدار تَدارُك الله لهم في شدَّتهم، وإلى وجوب أنْ يثوبوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربهم.

رابعها: كشف حال أعداء الله المنافقين، وَهَتْك أستارهم وسرائرهم للنبي والمسلمين، كيما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم. وحتى يتوب من شاء منهم. اقرأ ـ إن شئت ـ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[2] وهُنَّ ثلاث عشرة آيةً فضحت المنافقين، كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات، وكما كشف القرآن أستارهم في كثيرة من المناسبات؛ ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثالثة بمضامينها الأربعة في قول الله تعالى في تلك الآية من سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[3].

الحكمة الرابعة:

الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو مُحْكَمُ السرد، دقيق السبْك، متين الأسلوب، قويُّ الاتصال، آخذٌ بعضُه برقاب بعض في سوره وآياته وجُمله، يجري دَمُ الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنَّه سبيكةٌ واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكُّكٌ ولا تخاذلٌ كأنه حَلْقَةٌ مُفْرَغَةٌ! أو كأنه سِمْطٌ وحيد وعقد فريدٌ يأخذ

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.
(٢) سورة البقرة، الآيات: ٨ ـ ٢٠.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

بالأبصار: نُظِّمَتْ حروفُه وكلماته، ونسِّقت جملُه وآياته، وجاء آخره مُساوقاً لأوله، وبدا أوّله مُواتياً لآخره!!.

وهنا نتساءل: كيف اتّسق للقرآن هذا التآلف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم يتنزَّل جملةً واحدةً، بل تنزَّل آحاداً مفرَّقةً تفرُّق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً!!

الجواب: أنَّنا نَلْمَحُ هنا سِرًّا جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سِمَةً فَذَّةً من سمات الربوبيّة، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن، وأنه كلام الواحد الديان ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾(١).

وإلا فحدثني ـ بربك ـ كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النَّسْج والسَّرْد، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجةٍ عن مقدور البشر، وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كلُّ جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها، ومتحدثاً عنها: سبباً بعد سبب، وداعية إثْرَ داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف، وتطاول آماد هذه النجوم، إلى أكثر من عشرين عاماً.

لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة التفكُّكَ والانحلال، ولا يَدَعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام.

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً: نزل مُفَرَّقاً منجماً، ولكنه تَمَّ مترابطاً مُحْكَماً. وتَفَرَّقَتْ نجومُه تفرُّقَ الأسباب، ولكن اجتمع نظمه اجتماعَ شَمل الأحباب. ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً، ولكن تكامل انسجامُه بدايةً وختاماً!!

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القُوَى والقُدر، ومالك الأسباب والمسبَّبات، ومدبِّر الخلق والكائنات، وقيُّوم الأرض والسموات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟؟

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات، قال: «ضموها في مكان كذا من سورة كذا». وهو بشرٌ لا يدري (طبعاً) ما ستجيءُ به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث فضلاً عما سينزل من الله فيها. وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتمُّ، وينتظم ويتآخى ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذُل ولا تفاوُت، بل يُعجزُ الخلق طُرًّا بما فيه من انسجامٍ ووحدةٍ وترابط: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[1]!!

وإنه ليتبين لك سرُّ هذا الإعجاز، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتِّساق والانسجام، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط، لا في كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغيره البلغاء.

خذ مثلاً حديث النبي ﷺ، وهو ما هو في روعته وبلاغته، وطهره وسموِّه: لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة، لدواعٍ متباينة، في أزمان متطاولة، فهل في مُكْنتك ومُكْنة البشر معك، أن ينظموا من هذا السرْد الشتيت وحده، كتاباً واحداً يَصْقله الاسترسال والوحدة، من غير أن ينقصوا منه أو يتزيَّدُوا عليه أو يتصرفوا فيه؟؟

ذلك ما لن يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويَخْرج للناس بثوب مرقَّع، وكلام ملفَّق ينقصه الترابط والانسجام، وتُعْوِزُه الوحدة والاسترسال، وتمجُّه الأسماع والأفهام.

إذن: فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده. وتلك حكمة جليلة الشأن، تدلُّ الخلق على الحق في مصدر القرآن! ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[2].

المعركة الطاحنة أو الوحي بين معتقديه ومنكريه

كل ما قدمناه إليك في نزول القرآن لا يسلِّمه ولا يقبله إلا من آمن بالوحي

(١) سورة هود، الآية: ١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦.

وأساليبه، والاتصالات الروحية بالملأ الأعلى، واستمداد الإنسان لمعارفه عن الله تعالى بوساطة الملك، على غير الطريقة المعتادة بين البشر. ولكن العقليَّة العصريَّة أصابها مَسٌّ من الماديّة والإلحاد والإباحة، فأصبح كثير من المتعلمين تعليماً مدرسيًّا ناقصاً، لا يهضمون هذه الحقائق العُليا، ولا يستسيغون فهمها، بل يُلقون حِبالاً وعِصياً في سبيل المؤمنين بها، ولا شبهة لهم فيما ذهبوا إليه إلا شكوكٌ تلقَّفوها من هنا وهناك، يروِّجونها باسم العقل مرةً؛ وباسم العلم مرةً أخرى.

لهذا نرى لزاماً علينا أن نقف هنا بجانب الوحي وقفةً نرفع فيها النقاب عن حقيقته وأنواعه وكيفيَّاته، ثم نُتْبِع ذلك بالأدلة العلمية على الوحي وإمكانه، ثم نردفها بالأدلة العقلية على تحقُّقه ووقوعه. ثم نختتم هذا المبحث بعلاج الشبهات التي تعترضهم ويعترضون بها في هذا الموقف الجلَل؛ والموضوع الخطير.

تلك نِقاطٌ أربعٌ إذا وُفِّقنا في بحثها، قطعنا الطريق على عصابات مجرمة، اتخذت مبحث الوحي أداةً للفتنة، وستاراً يقضون من ورائه وَطَراً للغَواية، ومآرَباً للإباحة، وسبيلاً إلى هدم الأديان، وضلال الإنسانية والإنسان.

أ ـ حقيقة الوحي وأنواعه وكيفياته

أما الوحي فمعناه في لسان الشرع؛ أن يُعْلِمَ الله تعالى مَنِ اصطفاه من عباده كلَّ ما أراد إطلاعَه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سِرِّيَّةٍ خفية، غير معتادة للبشر.

ويكون على أنواع شتى: منه ما يكون مكالمةً بين العبد وربه، كما كلَّم الله موسى تكليماً. ومنه ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب مُصطفاه على وجهٍ من العلم الضروري لا يستطيع له دَفعاً، ولا يجدُ فيه شكًّا. ومنه ما يكون مناماً صادقاً يجيء في تحقُّقه ووقوعه، كما يجيء فلقُ الصبح في تبلُّجه وسطوعه. ومنه ما يكون بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام: وهو ملكٌ كريم ذو قوَّة عند ذي العرْش مكين، مطاعٌ ثمَّ أمين. وذلك النوعُ هو أشهر الأنواع وأكثرها. ووحي القرآن كله من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجليّ. قال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[1].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ ـ ١٩٥.

ثم إن ملك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتَّى: فتارة يظهر الرسول في صورته الحقيقيَّة الملكية. وتارةً يظهر في صورة إنسانٍ يراه الحاضرون ويستمعون إليه. وتارةً يهبط على الرسول خفيةً فلا يُرى، ولكن يظهر أثرُ التغيُّر والانفعال على صاحب الرسالة فيغِطُّ غطيط النائم، ويغيب غيبةً كأنها غَشْية أو إغماء، وما هي في شيء من الغشية والإغماء، إن هي إلا استغراقٌ في لقاء الملَك الروحاني، وانخلاعٌ عن حالته البشرية العادية، فيؤثِّر ذلك على الجسم، فيغطُّ ويثقل ثقلاً شديداً، قد يتصبَّب منه الجبين عرقاً في اليوم الشديد البرد. وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقْع الجَرَس إذا صَلْصَلَ في أُذُن سامعه، وذلك أشدُّ أنواعه. وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دَوِيُّ النحل، لكنهم لا يفهمون كلاماً، ولا يفقهون حديثاً. أما هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه يسمع ويعي ما يُوحى إليه، ويعلم علماً ضروريًّا أنَّ هذا هو وحي الله دون لَبْس ولا خفاء، ومن غير شك ولا ارتياب، فإذا انجلى عنه الوحي وجد ما أُوحي إليه حاضراً في ذاكرته، منتقِشاً في حافظته، كأنما كُتب في قلبه كتابةً.

والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرةٌ في الكتاب والسنة، منها ما قصصنا عليك في تنزُّلات القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾[1].

ومنها الحديث الذي يرويه البخاريُّ في صحيحه عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها: أنَّ الحارثَ بنَ هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله كيفَ يأتيكَ الوحيُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحْياناً يأتيني مثلَ صَلْصَلَة الجرس ـ وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ ـ فيَفْصمُ عَنّي وقد وَعَيْتُ عنه ما قال. وأحياناً يتمَثَّلُ لي المَلَكُ رَجُلاً فيكلّمني فأَعِي ما يقول»[2] قالت عائشة: ولقد رأيتهُ ينزل عليه الوحيُ في اليوم الشديدِ البَرْدِ فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَهُ ليتفصَّدُ عَرَقاً.

ب ـ الوحي من ناحية العلم

اعلم أن أعداء الوحي ومنكرية لا يؤمنون بالشرع وأدلة الشرع. إنما يؤمنون

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

(٢) صحيح البخاري: باب بدء الوحي: ٢.

بالعقل على الطريقة التي يستسيغونها، وبالعلم الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث، وهو جملة المعارف اليقينية التي أنتجها دستور البحث الجديد في الوجود وكائناته، من جعل الشك أساساً للبحث، والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحسُّ دون سواه، فهم يقدِّمون الشكَّ وَيَمْعِنُونَ فيه، ثم لا يعترفون إلا بالحسيَّات، ولا يَحْفِلُونَ بمجرد العقليات. ومن هنا سجنوا أنفسهم في سجن المادَّة، ومكثوا حيناً من الدهر ينكرون ما وراء المادَّة، ويسرفون في الشكوك إلى أبعد الحدود، ويستخفُّون بأمر الإلٰهيات والنبوَّات والوحي إلى مدًى بعيد لم تصل إليه أظلم عهود الجاهلية، لولا أن صدمهم العلم نفسُه صدمةً عنيفةً غَيَّرَتْ رأيهم في إنكار ما وراء المادة كما يأتي إن شاء الله. وإنما نبدأ هنا بأدلة الوحي العلمية، لأنها في الواقع أدلة لإمكان الوحي وتقريبه إلى العقول. وإمكان الوحي هو الخطوة الأولى في الموضوع، وهو ملحوظ في المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلي الآتي، فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكانُ الصدارة والتقديم.

«الدليل الأول»: التنويمُ الصناعي، أو التنويم المغناطيسي، وهو من المقرَّرات العلمية الثابتة. كشفه الدكتور «مسمر» الألماني في القرن الثامن عشر، وجاهد هو وأتباعه مدى قرنٍ كاملٍ من الزمان في سبيل إثباته وحَمْلِ العلماء على الاعتراف به وقد نجحوا في ذلك، فاعترف العلماء به علمياً؛ بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلَّفة من الخلق واطمأنُّوا إلى تجاربه. وأخيراً أثبتوا بوساطته ما يأتي:

١ ـ أن للإنسان عقلاً باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً.

٢ ـ أنه وهو في حالة التنويم يرى ويسمع من بعد شاسع، ويقرأ من وراء حجب، ويخبر عما سيحدُث، مما لا يوجد في عالم الحسِّ أقلُّ علامةٍ لحدوثه.

٣ ـ أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل الباطن سمواً بتنقله فيها.

٤ ـ أنه قد يصل إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده؛ وتَمْثُل إلى جانبه غير مرئية، بينما يكون الجسم في حالةٍ تشبه الموت، لولا علاقةٌ خفية بين الروح والجسم.

٥ ـ أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحاً.

٦ ـ أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال.

٧ ـ أن الروح لا تنحلُّ بانحلاله.

٨ ـ أنها تتصل بالأرواح التي سبقتها إذا تجرَّدت عن المادَّة، إلى غير ذلك مما لا نسلِّم جميع تفاصيله تقليداً، وإن كنا نسلِّم هذا العلم وتجاربه. ومقرراته في الجملة، لثبوت الدليل بها في الجملة أيضاً بواسطة التجارب العديدة والمشاهدات الكثيرة. وله في الغرب أنصار من علماء وطلاب؛ وله دورٌ وكتب، وله مستشفياتٌ يؤمُّها الناس للتداوي به.

وليس من موضوعنا أن نتوسَّع لك في هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده، ولكنا نريد أن نتقدَّم إليك بفكرة مجملةٍ عنه، تريك إلى أيِّ حد أظهر الله في هذا العصر آيات باهراتٍ، على أيدي الطبيعيين الذين ينكرون ما وراء المادة ويسرفون في الإنكار، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل يثبتون ما وراءَ المادة ويسرفون في الإثبات. تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1] اهـ من خاتمة سورة فصلت.

وإننا نضع بين يديك هنا تجربةً واحدة من تجارب التنويم، تقرِّب إليك الوحي كل التقريب، وهذه التجربة رأيتها بعيني، وسمعتها بأذني، بنادي جمعية الشبان المسلمين، على مرأى ومسمع من جمهور مثقَّف كبير، حضر ليشهد محاضرةً مهمة في التنويم المغناطيسي وإثبات أنه يمكن أن يُتخَذ سلاحاً مسموماً لتغيير عقيدة الشخص ودينه، كما تسفَّل إلى ذلك بعض المبشرين، إذ فتن بهذا العدوان الخبيث شابًّا من خيرة الشبان المسلمين حول سنة ١٣٥١ هـ في حادثة مشهورة مروِّعة، وما هي منكم ببعيد.

قام المحاضر، وهو أستاذ في التنويم المغناطيسي، وأحضر الوسيط وهو فتًى فيه استعداد خاص للتأثُّر بالأستاذ والأستاذُ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط، فالأول ضعيف النفس، والثاني قويُّها. وللضعف والقوة وجوه ليس هذا موضع بيانها. نظر الأستاذ في عين الوسيط نظراتٍ عميقةً نافذة، وأجرى عليه حركاتٍ يسمونها سَحَبات، فما هي إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يغطُّ غطيط النائم، وقد امتقع لونُه، وهمد جسمه،

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

وفقد إحساسه المعتاد، حتى لقد كان أحدنا يَخِزُهُ بالإبرة وخَزَات عدة، ويخزه كذلك ثانٍ وثالث، فلا يبدي الوسيط حَرَاكاً، ولا يظهر أيَّ عرضٍ لشعوره وإحساسه بها. وحينئذٍ تأكَّدنا أنه قد نام ذلك النومَ الصناعيَّ أو المغناطيسي. وهنالك تسلط الأستاذ على الوسيط يسأله: ما اسمك؟ فأجابه باسمه الحقيقي. فقال الأستاذ: ليس هذا هو اسمك، إنما اسمك كذا (وافترى عليْه اسماً آخر) ثم أخذ يقرر في نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق، بوساطة أغاليط يلقِّنها إياه في صورة الأدلة، وبكلام يوجهه إليه في صيغة الأمر والنهي. وهكذا أملى عليه هذه الأكذوبة إملاءً، وفرضها عليه فرضاً؛ حتى خضع لها الوسيط وأذعن!

ثم أخذ الأستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرّة بعد الأخرى في فترات متقطعة، وفي أثناء الحديث على حين غفلة، كل ذلك وهو لا يجيب. ثم نناديه كذلك باسمه المصنوع فيجيب، دون تردُّد، ولا تَلَعْثُم.

ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائماً أن هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته؛ ثم أيقظه وأخذ يتمُّ محاضرته ونحن نَفْجَأُ الوسيط بالاسم الحقيقي فلا يجيب، ثم نفجؤه باسمه الثاني فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقي!

وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن المنوِّم «بكسر الواو» يستطيع أن يمحو من نفس وسيطه كل أثر يريد محوه، مهما كان ثابتاً في النفس، كاسم الإنسان عينه، ومهما كان مقدَّساً فيها كعقائد الدين.

وإنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين: أحدهما أن محو الدين عدوانٌ أثيم، وإجرام شنيع، لم تقبله نفسيَّة المحاضر ولا الحاضرين. ثانيهما: أن الاسم أثبتُ في نفس صاحبه من دينه، فمحوه منها أعجب، ومنه تَعلم أن محو الدين منها أيسر!

وبهذه التجربة أيضاً ثبت لي أنا من طريق علمي، ما قرَّب إليَّ الوحيَ عمليًّا، وما جعلني أعَلِّله تعليلاً علميًّا: فالوحي «عن طريق الملك» عبارةٌ عن اتصال الملك بالرسول اتصالاً يؤثِّر به الأول في الثاني، ويتأثَّر فيه الثاني بالأول، وذلك باستعدادٍ خاص في كليهما، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير، لأنه روحاني محض، والثاني فيه

قابلية التلقي عن هذا الملك لصفاء روحانيته، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك. وعند تسلُّط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية، ويظهر أثر التغير عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك، وينطبع ما تلقّاه ماثلاً في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى، وجدَ ما تلقّاه ماثلاً في نفسه، حاضراً في قلبه، كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً.

أتظن ـ أيها القارىء الكريم ـ أن المخلوق يستطيع أن يؤثّر في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسي، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي؟ كلا ثم كلا ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[1].

«الدليل العلمي الثاني»: أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وننتفع به، مما يسمونه التليفون، واللاسلكي، والميكرفون، والراديو. وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاقٍ بعيدة عنه وأن يفهمه ما شاء ويرشده إلى ما أراد. فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر، عن أن يوحي إلى بعض عباده ما شاء، عن طريق الملك أو غير الملك؟ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً.

«الدليل الثالث»: استطاع العلم أيضاً أن يملأ بعض أسطوانات من الجماد الجامد الجاهل، بأصوات وأنغام، وبقرآنٍ وأغانٍ وكلام، على وجه يجعلها حاكيةً له بدقة وإتقان، وبين أيدينا من ذلك شيءٌ كثير لا سبيل إلى إنكاره يسمونه (بالفونغراف).

أبعْدَ هذه المخترعات القائمة، يُستبعد على القادر تعالى بوساطة ملك ومن غير وساطة ملك؛ أن يملأ بعض نفوس بشريَّة صافية من خواصّ عباده، بكلامٍ مقدس يهدي به خلقه ويُظهر به حقَّه، على وجهٍ يجعل ذلك الكلام منتقشاً في قلب رسوله، حتى يحكيه بدقة وإتقان كذلك؟

«الدليل الرابع»: أننا نشاهد بعض الحيوانات الدُّنيا تأتي بعجائب الأنظمة والأعمال، مما نُحيل معه أن يكون ذلك صادراً عن تفكير لها، أو غريزة ساذجة فيها،

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.

ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر في ذلك إلا عن إرادة عُليا، توحي إليها وتلهمها تلك العجائب والغرائب، من الصناعات والأعمال، والدقّة والاحتيال.

وإذا صحَّ هذا في عالم الحيوان، فهو أولى أن يصح في عالم الإنسان، حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى، وأخذه عنه يكون أتمّ، ومن ذلك ما يكون بطريق الوحي.

وإن شئت أمثلةً لتلك الحيوانات التي ضربناها لك مثلاً في إلهاماته العلوية، فدونك النمل والنحل، وما تأتيان من ضروب الأعمال، ودقَّة النظام. وهاك حيواناً غريباً أسموه «اكسيكلوب». وقال عنه الأستاذ «ميلن إدوار» المدرس بجامعة (السوربون) بفرنسا ما ترجمته: «إن الحيوانات المسماة «اكسيكلوب» تعيش منفردة، وتموت بعد أن تبيض مباشرة، وتخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية، كما لا تستطيع الحصول على غذائها. ومع ذلك فحياتها تقتضي أن تعيش مدة سنة في مسكن مقفل، وفي هدوء تام، وإلا هلكت.

فترى الأم متى حان وقت بيضها، تعمد إلى قطعة من الخشب، فتحفر فيها سِرْداباً طويلاً، فإذا أتمَّته أخذت في جلب ذخيرة إليه، تكفي صغيراً واحداً مدة سنة، تلك الذخيرة هي طَلْع الأزهار وبعض الأوراق السُّكَّرية، فتحشو بها قاع السرداب، ثم تضع عليه بيضة واحدة، ثم تأتي بنُشارة الخشب، وتكوِّن منها عجينة تجعلها سقفاً على تلك البيضة، ثم تأتي بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك السقف، ثم تضع بيضة أخرى، وهلمَّ جَراً حتى يفرغ بيضها، ثم تترك الكل وتموت»!!

فمن ذا الذي علَّم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة، تلك الصناعة المحيِّرة للعقل؟ ومَنْ أفهمها وهي تموت بعد أن تبيض مباشرةً أن صغارها التي ستولد، في حاجة إلى البقاء سنةً في حالة ضعف وعجز؟ ومن الذي غرس في قلبها هذه العناية بنوعها، حتى كلَّفتها كلَّ هذه المشقة في وضع بويضاتها؟!

لا ريب أن قَيُّوم الوجود يؤتي الكائنات علماً بما يقيمها وبما يصلحها، من غير طريق الحواسّ التي لا تستطيع أن تكتسبه بها. ومن العبث وضلال الرأي أن يثبت الباحث الطبيعي إلهاماً تبعثه القدرة الإلٰهية إلى أحقر الحشرات، ثم ينفيه عن النوع البشري وهو أشدُّ ما يكون حاجة إلى هذا الوحي والإلهام في حياته الفردية والاجتماعية.

«الدليل الخامس»: العبقرية، ويُعَرِّفها أفلاطون بأنها حالٌ إلٰهيةٌ مولدةٌ للإلهامات العلوية للبشر، ويقرر الفلاسفة أنها حال علوية لا شأن للعقل فيها ويقول الطبيعيون: إنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصّلها دراسة، ولا يوجدها تفكير.

وهاك أمثلةً للعبقرية والعباقرة، تشعُّ على موضوع الوحي نوراً كشَّافاً يهدي الحيارَى الضالين، إلى سواء السبيل.

١ ـ قال الأستاذ «ميرس» الإنجليزي مدرس علم النفس بجامعة «كامبردج» في كتاب كبير له أسماه «الشخصية الإنسانية» ما ترجمته: كان للمستر بيدلر خاصَّة تكاد تلتحق بالمعجزات، فإنه كان يعيّن على البديهة العوامل التي إذا ضرب بعضها في بعض أنتجت عدداً من سبعة أو ثمانية أرقام. فإذا سئل مثلاً: ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما في الآخر نتج العدد (١٧٨٦١) أجابك على الفور بأنهما (٥٣,٣٣٧). وهو يقول: إنه لا يدري على أية حال يأتي بهذا الجواب، فكانت الإجابة عنده كأنها غريزة طبيعية.

٢ ـ ونقل عن الشاعر الكبير (سوللي برودوم) الفرنسي أنه قال: «حدث لي في بعض الأحايين أني كنت أجد فجأةً برهان نظرية هندسية أُلقيت إليَّ منذُ سنة، وذلك بدون أن ألقي إليها أقلَّ التفات».

٣ ـ وذكر المسيو (رينه) الشاعر الفرنسي أنه ينام غالباً وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتمَّ، ثم يستيقظ فيجدها تامة.

٤ ـ وكذلك يقول الشاعر (موسيه) الفرنسي «أنا لا أعمل شيئاً ولكن أسمع ما يلقى إليَّ فأنقله، فكأنَّ إنساناً مجهولاً يناجيني في أذني».

وهذه الأمثلة التي سقناها تُثبت وجود اتصالات روحانية باطنة في بعض الأفراد، تُمِدُّ الإنسان بعلم وهداية من طريق غير معتاد؛ وذلك يقرِّب الوحْيَ أيَّما تقريب، في وقت اشتدَّ شكُّ الناس فيه حتى كذَّبوا بالإلٰهيات والنبوات، وسخروا بالأديان والشرائع، مع أنها أعظم عوامل التحوُّل الاجتماعي والفكري في الإنسان؛ وأكبر الأحداث التي غيَّرت العالم. وحوَّلت مجرى التاريخ، ومن العار الجارح لكرامة البشر، أن تكون تلك العوامل والأحداث العظمى، قامت على أوهامٍ خاطئة، أو على أكاذيب متعمدة!

«الدليل السادس»: قرَّر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية، تعتبر من الخوارق التي لم يكن يحلم بحدوثها العلماء، على حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوا في حالة ذهول، وقد استحال تعليل ما أتوا تعليلاً مادياً يستند إلى الحس، وقد اختبروا تلك الظواهر، واستحضروا لشهودها أكبر مُشَعْوذي الأرض، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة في شيء؛ وإنما هي أحداثٌ روحانية، لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد.

تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث الحاضر، يقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس في حالة من حالات ذهولهم بانكشافات وظواهر روحية، فكيف يُستبعد بجانب هذا الكشف العلمي أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحي، بينما هم من كملة العقول والأخلاق؟ لقد أسفر الصبح لذي عينين!

جـ- الوحي من ناحية العقل

عرفت فيما سقناه لك من الأدلَّة العلمية أن الوحي ممكن وقريب من الوقوع، ونقيم لك الدليل العقلي هنا على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلاً: ذلك أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم محمد ﷺ، وكل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت، وذلك هو المطلوب. أما الدليل على أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم، فما مَرَّ عليك من أنباء الوحي في الكتاب والسنة. وأما الدليل على أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حقٌ ثابت، فإن ذلك هو مقتضى الصدق والعصمة. وأما الدليل على أن محمداً ﷺ صادقٌ معصومٌ فإنما هي المعجزة القائمة مقام قوله تعالى لعباده في شأن تصديق رسوله: «صَدَقَ عبدِي في كلِّ ما يُبَلِّغُ عني، ومن ذلك أنه يوحَى إليه مني».

وهنا نجد أنفسنا قد انتهينا إلى المعجزة، فما هي المعجزة؟

المعجزة

هي أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، أو هي أمرٌ خارق للعادة، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مدعي النبوة عند

دعواه إياها شاهداً على صدقه. فإذا قام إنسانٌ ما، وادعى أنه مبعوث الله إلى خلقه؛ ورسولُه إلى عباده؛ وقال: إن آية صدقي فيما أدعيه؛ أن يغيِّر الله الذي أرسلني عادةً من عاداته على يدي، وأن يخرج الآن عن سُنَّةٍ من سُنته العامة في وجوده، ثم قال: وسيأتيكم الله بهذا الأمر العُجاب من بابٍ ترون أنكم فيه نابغون، وعليه قادرون، وإني أتحدَّاكم زَرافاتٍ وَوُحْداناً أن تأتوا بمثل هذه الآية، وأمامكم الباب مفتوحاً كما تعتقدون، وفيكم النبوغ موفوراً كما تدَّعون، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي. قال ذلك بلغة الواثق؛ وتحدَّانا هذا التحدي الظاهر، في وقت يثور فيه على عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا، ويسفِّه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من آبائنا، ونحن أحرص ما نكون على تعجيزه وتبهيته والغلبة عليه والظفرِ به، دفاعاً عن كرامتنا، وانتصاراً لأعز شيءٍ لدينا.

ثم لم يلبث أن قام وقمنا؛ وأجمعَ أمره وأجمعْنا، وإذا نحن جميعاً بعد مُحاولات ومُصاوَلات؛ لم نستطع أن نأتي بمثل ما أتى به، فضلاً عن أعظم منه. مع أننا أمة وهو فرد. ومع أنه قد دخل علينا من أيسر الطرق في نظرنا؛ ومن أشهر فنٍّ في زماننا، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته، وأنصفنا كلَّ إنصافٍ من نفسه!!

هل يشكُّ ذو مُسْكة من عقل، في أن هذا الإنسان المتفوِّق الممتاز، صادقٌ في رسالته، محقٌّ في دعايته؟ خصوصاً إذا عرفنا فوق ذلك كله، أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق، من لَدُنْ صباه وطفولته، إلى يوم مبعثه ورسالته!

لو أنه جاء بالمعجزة من بابٍ لا نعرفه، لقلنا: رجلٌ حَذَق فناً من الفنون التي لا علم لنا بها، أو تعلَّم صناعةً من الصناعات التي لم نُحِطْ بخبرها. أمَّا وقد جاءنا من الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالفَوْق والسبق، فلا يسعنا إلا الإذعان له، والإيمان بما جاء به، ما دمنا منصفين.

ولنضرب لك مثلاً: جاء موسى عليه السلام بمعجزته عَصاً من الخشب، لا روح فيها ولا حركة، ولا لين ولا رطوبة، ثم ألقاها باسم الذي أرسله؛ فإذا هي حية تسعى، بينما الأمة التي تحدَّاها بذلك كانت قد تفوَّقت في السحر وحذَقته؛ وضربت فيه بأوفر سهم وأوفى نصيب، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد. وهم نابغون في السحر وهو مع نشأته فيهم لم يُعرف يوماً من الأيام بمعالجة السحر. وهم معتزُّون بعَددهم وعُددهم وسلطانهم، وهو خِلو من هذه الأسباب والمظاهر!

فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه فإذا هي تَلْقَفُ ما يأفكون، ووقع الحق وبطل ما كانوا يَعْملون، ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١١٩ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢٠ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢١﴾[1].

الحقُّ أَبْلَج. ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم، لأنهم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجه، وقد رأوا رَأْيَ العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع هذا السحر المبني على مقدمات يستطيع كل إنسان أن يزاولها، ولها نتائج محدودة لا يمكن أن يتجاوزها. نعم لم يطق السحرة صبراً عن المسارعة إلى الاعتراف والخضوع للحق بعد ما تبيَّن، مهما كلَّفهم ذلك أن يُقتلوا أو يُصلبوا؛ وقالوا لفرعون مليكهم ومعبودهم بالأمس ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢﴾[2]. اقرأ إن شئت الآيات بعدها في سورة طه إلى قوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾[3].

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله: قله في عيسى عليه السلام وإبرائه الأكمهَ والأبرص وإحيائه الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير بإذن الله: أمام قوم نبغوا في الطب أيَّما نبوغ ومهروا فيه أيَّما مهارة[4]!

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا ومولانا محمد ﷺ وما جاء به من آيات بينات، ومعجزات واضحات! وحسبك القرآن وحده برهاناً ساطعاً بل براهين ساطعات: كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم في فم الدنيا إلى يوم الساعة. تتحدَّى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان، والعلوم والمعارف، وأنباء الغيب وشواهد الحق.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٠ ـ ١٢٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٢.

(٣) سورة طه، الآية: ٧٦.

(٤) لا تعبأ هنا بما يعزى إلى المسيو رينان من إنكاره نبوغ قوم عيسىٰ في الطب، فإنه ناف. والمثبت مقدم على النافي، وعلى فرض صحة هذا النفي فإن هذا لا يضرنا شيئاً لأن المعجزة يكفي في تحققها عجز البشر عن مثلها، وليس تفوق المواجَهين بها شرطاً، إنما هو أمر زائد غير مشروط (م).

أضف إلى ذلك أن الذين شوفهوا بخطابه عند مهبط الوحي كانوا أئمة الفصاحة، وفُرسان البلاغة، بضاعتهم الكلام والتفنُّن في إجادته. وصناعتهم التنافس في النثر وديباجته، والشعر ورونقه. وكرامتهم مرتبطة بما يُجيدون في هذا الباب، لا بما يجمعون من الذهب أو يحملون من ألقاب. حتى بلغوا في هذا الميدان شأواً لا يُبارى، وغايةً لا تُدرك. وما يكون لنا أن نطلق العنان هنا للقلم. وإلا ضاق بنا التأليف والزمن. وأنت خبير بإعجاز القرآن، وما كتب في إعجاز القرآن. فاكتف بهذه الإشارة الخاطفة. وإن أردت المزيد فعليك بما كتب في إعجاز القرآن.

د ـ دفع الشبهات

ولكني أعالج بين يديك لهذه المناسبة شبهاتٍ عشراً يردِّدها كثيرٌ من المفتونين.

الشبهة الأولى:

يقولون: إن المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات. فإذا كان فيها طرافة أو دهشة أو عجب، فكذلك آثار العلم ومدهشاته فيما نرى ونسمع.

والجواب: تعرفه مما ذكرناه آنفاً في بحث المعجزة. مما يتبين به الفرقُ بعيداً والبونُ شاسعاً بين المعجزة وما جدَّ أو يجدُّ في العالم من عجائب العلم، وروائع الفن، وبدائع الاختراع. فالمعجزة ليست لها أسباب معروفة حتى تُلتمس ويؤتى بمثلها. أما هذه المخترعات فإن لها أسباباً معروفة عند أصحابها، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسر وسهولة متى التمسها من طريقها.

الشبهة الثانية:

يقولون: إن المعجزة كالسحر والشعوذة وما إليهما: إن هي إلا تخييلات وتضليلات.

والجواب: يتبين لك مما قصصنا عليك في المعجزة وفي ضرب المثل لها بعصا موسى. ويمكن تلخيصه بأن المعجزة نفحةٌ من نفحات الحق تخرج عن أفق الأسباب المعتادة، والوسائل المشاهدة، والغايات المألوفة. أما السحر وما أشبهه، فإنها فنون خبيثة، ذات قواعد وأوضاع يعرفها كل من ألَمَّ بها، ويصل إلى وسائلها وغاياتها كلُّ من عالجها من بابها. ولهذا كان أول من آمن بموسى هم السحرة أنفسهم، لأنهم أعلم بهذا الفرق الواضح، والبون الشاسع، كما تقدم.

الشبهة الثالثة:

يقولون: إن ما تسمونه معجزات من العلوم والمعارف التي اشتمل على مثلها القرآن، ما هي إلا آثارٌ لمواهب بعض النابغين من الناس، وهذه المواهب وآثارها وُجدت ويمكن أن توجد في كل أمة.

والجواب: أن مواهب النابغين، ونبوغ الموهوبين، وما يكون منهم من آثار وأفكار، كل ذلك له وسائل وعوامل، ثم له أشباه معتادة ونظائر، في كل أمة وجيل، وفي كل عصر ومصر، أما المعجزات فلن تجد لها من وسائل ولا عوامل، ولن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها ونظائر، اللهم إلا إذا خرجنا عن نطاق الكون المعروف، وسَنَن الوجود المألوف.

الشبهة الرابعة:

يقولون: إن خرق الله لعاداته على أيدي رسله كما تقولون، يعتبر خروجاً عن النظام العامّ الذي تقتضيه الحكمة، وتناط به المصلحة.

والجواب: أن المعجزة ـ وإن كانت خارجةً عن حدود الأنظمة المعتادة لا تُعتبر خروجاً على النظام العامّ الذي تقضي به الحكمة، وتُناط به المصلحة، بل هي من مقتضيات ذلك النظام العامّ الذي تمليه الحكمة، وتوحيه المصلحة. وأيُّ حكمة أجلُّ من تأييد الحقّ وأهل الحق؟ وأيُّ مصلحةٍ أعظم من اهتداء الخلق إلى طريق سعادتهم؟ بوساطة تلك المعجزات التي يفهمون منها مراد الخالق من تأييد رسله، ووجوب تصديقهم لهم، واتباعهم إياهم.

الشبهة الخامسة:

يقولون: لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة، ولم يختصَّ بهِ شِرْذِمَةً قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه.

والجواب: أن عامّة البشر ليس لديهم استعدادٌ لتلقي الوحي عن الله، لا مباشرةً ولا بواسطة الملك، حتى لو جاءهم ملك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صورة إنسان، وحينئذٍ يعود اللَّبس ويبقى الإشكال. فقضت الحكمة أن يجعل الله من بني الإنسان طائفةً ممتازةً لها استعدادٌ خاص يؤهلها لأن تتلقَّى عن الله الوحي، ثم تؤديه في

أمانة إلى العامّة من إخوانهم في الإنسانية، بعد أن وضع الله في أيديهم شواهد الحق الناطقة التي تدلّ العالم على مراده سبحانه من تصديقهم، وبعد أن سلّحهم بالآيات التي تطمئن الناس على أنهم رسلٌ لإنقاذهم وإرشادهم من عند ربهم. ثم إن اختصاص بعض أفراد النوع الإنساني بالوحي والنبوة، فيه نوع من الاختبار والابتلاء، الذي بنى الله عليه هذه الحياة، وميز به الخبيث من الطيب: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾[1].

وتلك الشبهة يقول الله في مثلها من سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

الشبهة السادسة:

يقولون: كيف تدلُّ المعجزة على تصديق الله لرسله، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه.

والجواب: أن دلالة المعجزة على تصديق الرسول، كدلالة الكون على خالقه، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه. ولنضرب لهم المثال، كيلا تبقى لهم شبهة ولا يقوم لهم عذر: افرِض أنك حضرت مجلساً عاماً فيه ملك من الملوك، وكان من تقاليد هذا الملك ألا يكشف رأسه في مجلس من المجالس العامة، وبينما القوم جلوس في حضرة صاحب الجلالة إذ نهض رجل من الحاضرين معروف للجميع بصدقة وأمانته، وأدبه واستقامته، وحسبه ونسبه. وإذا هذا الرجل يقول على مرأى ومسمع من المليك ورعيته: أيها القوم إن مولاي الملك حمَّلني هذه الرسالة أبلغكم إياها، وهي أن تفعلوا كذا، وتتركوا كذا، ثم سكت الملك ولم يكذبه، ثم لم يكتف الرجل بطهارة ماضيه، وسكوت مليكه في ترويج دعوته، وتأييد رسالته. بل قال إن آية صدقي أن يُغَيِّر مولاي الملك عادته الآن، ويخرج عن تقليدٍ من تقاليده المعروفة لكم جميعاً، وذلك بأن يُعَرِّيَ رأسه في هذا المجلس العام. ثم ما كاد ينتهي حتى عَرَّى المليكُ رأسه وخلع تاجه. أفلا يعتبر ذلك دليلاً كافياً على صدق هذا الرجل وصدق ما جاء به؟ ثم ما بالك إذ هو

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٨ـ٩.

قد عزَّز دليله بالتحدِّي فقال: إني أتحدَّاكم أن يجيبكم الملك إلى مثل ما أجابني إليه. فأخذوا يطلبون ويُلحُّون، فلم يستجب لهم الملك، ولم يغير عادته معهم ولا مرة واحدة. أفلا يكون ذلك برهاناً أبلج من الصبح على أن هذا الداعي هو رسول هذا الملك حقاً؟ ثم ألا يكون المكذب بعد ذلك معانداً ومكابراً، ويكون بالحيوان الذي لا يفهم ولا يعقل؛ أشبه منه بالإنسان الذي يفهم ويعقل؟ ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1].

وذلك المثل هو مثل رُسُل الله يؤيدهم معجزات الله ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[2].

الشبهة السابعة:

يقولون: إن هذا الوحي الذي تدَّعونه وتدَّعون تنجيمه، جاء بهذا القرآن غير مرتَّب ولا منظَّم، فلم يُفرِد كلَّ غرض من أغراضه بفصل أو باب، شأن سائر الكتب المنظمة. بل مُزجت أغراضُه مزجاً غير مُراعًى فيه نظام التأليف، فيبعد أن يكون وحياً من الله. وهذه الشبهة واردة كما ترى على تنجيم القرآن وترتيبه أيضاً.

والجواب: أن مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلفة لا تعتبر عيباً فيه، ولا في وحيه وموحيه، بل هي ـ على العكس ـ دليلٌ ماديٌّ، على أنه ليس بكتاب وضعي بشري؛ يجلس إليه واضعه من الناس؛ فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسبة فصلاً، ولكل مجموعة من فصوله المتناسقة باباً؛ بل هو مجموع إشراقات من الوحي الإلٰهي الأعلى. اقتضتها الحكمة ودعت إليها المصلحة. على ما هو مفصَّل في أسرار تنجيم القرآن.

ثم إن هذا المزيج الطريف الذي نجده في كل سورة أو طائفة منه، له أثر بالغ في التذاذ قارئه، وتشويق سامعه، واستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه، في كل جلسة من جلساته أو درس من دروسه وهذا هو الأسلوب الحكيم في التعليم والإرشاد، خصوصاً لتلك الأمة الأميَّة التي نزل عليها. فما أشبه كلَّ مجموعة من القرآن بروضة يانعة يَتَنَقَّلُ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.

الإنسان بين أفيائها متمتعاً بكل الثمرات، أو بمائدة حافلة بشتى الأطعمة يُشبع الجائعُ حاجتَه بما فيها من جميع الألوان.

وهنا دقيقة أحب ألاَّ تَعْزُبَ عن علمك. وهي أن هذا الروَّضَ الربانيَّ اليانع (القرآن الكريم) يقوم بين جُمَله وآيه وسُوَره تناسبٌ بارع، وارتباطٌ محكم، وائتلافٌ بديع، ينتهي إلى حدِّ الإعجاز، خصوصاً إذا لاحظنا نزوله مُنَجَّماً على السنين والشهور والأيام.

قال الشيخ وليُّ الدين الملوَّى: «قد وَهِمَ مَنْ قال: لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرَّقة. وفَصْلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً. فالمصحف على وَفق ما في اللوح المحفوظ مرتَّبةً سورُه، كلها وآياته بالتوقيف كما أُنزل جملةً إلى بيت العزَّة. ومن المعجز البيِّن أسلوبُه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كل آية أن يُبحث أولَ كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلَّة، ثم المستقلَّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علمٌ جمٌّ. وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»:

وقال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره لسورة البقرة ما نصُّه:

«ومن تأمَّل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعلَّ الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأَبْصَارُ رؤيَتَهُ ... والذنْبُ للطرْفِ لا لِلنَّجْمِ في الصِّغَرِ

الشبهة الثامنة:

يقولون: إن محمداً كان عصبياً حادَّ المزاج، وكان مريضاً بما يسمونه (الهستريا) فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها.

والجواب: أن هذه فِرْيَةٌ تدلُّ على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ. فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح، والأدلَّة القاطعة، أنه كان ﷺ وديعاً، صبوراً حليماً، بل كان عظيم الصبر، واسع الحلم، فسيح الصدر حتى إنه وسع الناس جميعاً بِبَسْطه وخُلقه.

وكان شجاعاً مِقداماً سليم الجسم، صحيح البدن، حتى إنه صارع رُكانةَ المشهور بشجاعته فصرعه. وكان يثبت في الميدان حين يفرُّ الشجعان، ويفزع الخلق ويشتدُّ الأمر، ويقول: «أنَا النبيُّ لاَ كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المطلب» ويقول: «إليَّ عبادَ الله» ولا يزال كذلك حتى يُنقذ الموقف ويكسب المعركة. ولو أفضنا في هذا الموضوع لطال بنا الكلام، ولكن موضعه كتب السيرة والشمائل المحمدية فارجع إليها إن شئت... أما مرض (الهستريا) الذي يَصِمُونَهُ ﷺ كذباً به فهو داءٌ عصبيٌّ عُضال، أكثر إصاباته في النساء. ومن أعراضه شذوذٌ في الخلق، وضيقٌ في التنفس، واضطرابٌ في الهضم. وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي، ثم إلى تشنُّج، ثم إلى إغماء، ثم إلى هَذَيَان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين، وقَفْز من مكان إلى مكان. وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحاً تهدِّده، وأعداءً تحاربه أو أنه يسمع أصواتاً تخاطبه، على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحسِّ والواقع.

فهل يتفَّق ذلك وما هو معروف عن النبي ﷺ من أنه كان أمَّة وحده في أخلاقه، وثباته، وحلمه، وعقله، ورَباطة جَأشه، وسلامة جسمه، وقوة بنائه؟

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء، وما انتدب له محمد ﷺ من تكوين أمةٍ شموسٍ أبيَّةٍ، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية، ودساتير الاجتماع، وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقي؟!

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان، هي أمة الأمم، وصاحبة العلم، وربَّة السيف والقلم!!

فهل المريض المتهوِّس الذي لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش؟!

قَدْ تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طعمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

الشبهة التاسعة:

يقولون: إنكم تستدلون على الوحي بإعجاز القرآن وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة، ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نسلِّمها، فلا نسلم الوحي المبني عليها.

والجواب: أن للقرآن نواحي أخرى في الإعجاز غير ما يحويه من أسرار البلاغة والبيان، ومن السهل معرفتها على من لم يتمهَّر في علوم العربية واللسان. منها ما يحويه هذا التنزيل من المعارف السامية، والتعاليم العالية، في العقائد والعبادات، وفي التشريعات المدنية والجنائية، والحربية والمالية، والحقوق الشخصية، والاجتماعية والدولية. وإن مقارنة بسيطة بين تلك الهدايات القرآنية وبين ما يوجد على وجه الأرض من سائر التشريعات الدينية وغير الدينية، توضِّح لك ذلك الإعجاز الباهر، خصوصاً إذا لاحظت أن هذا الذي جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلاً أُمِّياً، نشأ وعاش، وشبَّ وشاب، وحَيّ ومات، بين أمة أمية، كانت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان!

كذلك أنباء الغيب التي تحدَّث بها القرآن ـ وهي كثيرة ـ يمكن إدراك وجه الإعجاز فيها بيسر وسهولة لكل منصف. إقرأ إن شئت فاتحة سورة الروم، لتعرف كيف أخبر القرآن صراحةً بأمرٍ كان لا يزال مستتراً في ضمائر الغيب، بل كانت العوامل والظواهر لا تساعد عليه، ذلك أنه أخبر في وقت انتصر فيه الفرس على الروم في أدنى الأرض، بأن الروم سيُدال لهم على الفرس وينصرون في بضع سنين؛ وكان كما قال.

ثم اقرأ قوله سبحانه مخاطباً لنبيه في موقف من مواقف الخصومة والمحاجَّة بينه وبين أعدائه اليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[1] وهذا من أبرز شواهد الإعجاز والتحدِّي: إذْ كيف يَتَسَنَّى لرجل عظيم في موقفٍ من المواقف الفاصلة بينه وبين أعدائه، أن يجرؤ على تحدِّيهم بشيء هو من شأنهم وحدهم، وكان في استطاعتهم عادةً، بل في استطاعة أقلِّ واحدٍ منهم، أن يقول ولو ظاهراً: «إني أتمنى الموت» ليظفروا بذلك التمني على محمد ﷺ، ويبطلوا به دعوته، ويستريحوا منه على زعمهم. ولكن كل ذلك لم يكن، فما تمنى أحد منهم الموت، بل صرفوا وما زالوا مصروفين عنه أبداً، ثم سجَّل القرآن عليهم ما هو أبعد من ذلك، إذ قال عقيب تلك الآية: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٩٤ ـ ٩٥.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾[1] اهـ من سورة البقرة.

أليست تلك أدلةً ماديةً قامت ولا تزال قائمةً، على أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان مؤيداً بالوحي من ربه، وأنه إنما يتلقى القرآن من لَدُنْ حكيم عليم؟

أما إعجاز القرآن من ناحية الأسرار البلاغية فلا يقدح فيه أن جمهرة الناس اليوم لا يدركونها ولا يتذوّقونها، فإن ذلك لا يرجع إلى خُلُوّ القرآن من أسرار البلاغة والبيان، إنما يرجع إلى جهل الناس باللغة العربية وأساليبها، وإلى فساد ذوقهم من غلبة العجمة عليهم، ومعروفٌ أن عدم الإدراك لشيء، لا ينهض دليلاً على عدم ذلك الشيء. ونظير ذلك أن عدم علمنا بلغة من اللغات الأجنبية مثلاً، لا يلزم منه أن ننكر أن فلاناً متفوقٌ في تلك اللغة بشهادة الإخصائيين فيها والحاذقين لها، بل نحن نؤمن بوجود لغاتٍ لا نعرف منها شيئاً، كما نؤمن بوجود نابغين فيها لا نعرفهم ولا نعرف من وجوه نبوغهم شيئاً، اللهم إلا عن طريق سماعنا لذلك من مصادر نثق بها.

كذلكم القرآن الكريم، قد شهد الفنّيّون والإخصائيون من حُذّاق اللغة العربية في أزهى عصور التوفر عليها والتمهُّر فيها، أنه كتاب فاق الكتب، وكلام بزَّ سائر ضروب الكلام، وبلغ في سموه وتفوقه حدود الإعجاز والإفحام، من ناحية الفصاحة والبلاغة وما يحمل لهما من أسرار! ثم نقل إلينا ذلك كله نقلاً متواتراً قاطعاً لا ظلَّ فيه للشك والنكران.

فلماذا لا نقبل هذا الحكم العادل، ومصادره كثيرة محترمة كل الاحترام؟!

أليس ذلك تعصباً وعناداً، على حين أن الباب كان ولا يزال مفتوحاً أمام كل مَن يحذق علوم اللغة العربية وأساليبها، أن يتذوّق أسرار البلاغة والإعجاز في هذا القرآن، وأن يحكم هو نفسه بما حكم به الآلاف المؤلفة في كل زمان ومكان!

وإذا لم تَرَ الهلالَ فسلِّمْ لأُناسٍ رَأَوْهُ بالأبصارِ

على أن لإعجاز القرآن ميداناً آخر فاطلبه إن شئت. «والله المُسْتَعَانُ».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

الشبهة العاشرة:

يقولون: إن إعجاز القرآن للعرب لا يدلُّ على أن القرآن كلام الله. بل هو كلام محمد نسبه إلى ربه ليَسْتَمِدَّ قدسيَّته من هذه النسبة. وإعجازه جاء من ناحية أن محمداً كان الفرد الكامل في بيانه بين قومه، لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضاً بين ما جاء به قومه، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله، شأن الرجل الفذ بين أقرانه في كل عصر.

ونجيب: على هذه الشبهة بأجوبة خمسة:

أولها: أن كل مَن أوتي حظًّا من حِسِّ البيان وذَوْقِ البلاغة، يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبويِّ فرقاً كبيراً يمثِّل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق. وها هما القرآن والحديث النبويُّ، لا يزالان قائمين بيننا، يناديان الناس بهذا الفارق البعيد، إن كان لهم إحساسٌ في البيان وذوق في الكلام.

ولو كان لهذه الشبهة شيءٌ من الوجاهة، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب الخُلَّص الذين شافَهَهُم القرآن؛ لأنهم كانوا أحرصَ على تَعْجيز محمد وإسْكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة. لكنهم ما قالوا هذا. بل كانوا أكرمَ على أنفسهم من أن يقولوه، إيقاناً منهم بظهور المميِّزات الفائقة بكلام الربوبية عن كلام النبوَّة، بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر في شيء. وهكذا «مَنْ ذَاقَ عَرَفَ وَمَنْ حُرِمَ انْحَرَفَ».

وكَمْ مِنْ عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفَتُهُ مِنَ الفهمِ السَّقِيمِ

الجواب الثاني: أن القرآن لم يأت الناسَ من الخَلْف، بل جاءهم من أوسع الأبواب، ودخل عليهم من طريق العرب الخلصاء ذوي اللَّسَن والبيان. وتحدَّاهم من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام، تلك الصناعة البيانيَّة الفائقة التي وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم، حتى صارت موضعَ تنافسهم وسبْقِهم، وموضوعَ فخرهم وفوْقِهم. شأنَ سائر معجزات الله تعالى: لم تأتِ الناسَ إلا من الناحية المفهومة لهم كلَّ الفهم، وذلك ليظهرَ أمرُ الله واضحاً جليًّا، لا لَبْسَ فيه ولا غموض، ولا شبهة ولا شكوك ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

ومن هنا نعلم، والتاريخ يشهد، أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد ـ كما يقول أُولٰئِكَ الملاحدة ـ لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامُه، بما أوتوا من ملكة النقد، وما وُهبوا من نباهة الحسِّ والذوق، ثم لأمكنهم أن يُجاروه ولو شَوْطاً قريباً، إن لم يمكنهم مجاراتُه شوطاً بعيداً. لا سيَّما أن القرآن قد اكتفى منهم في مَعْرِض التحدِّي بأن يأتوا بسورةٍ من مثل أقصر سُوَره، أي بمثل ثلاث آياتٍ قِصَار من بين تلك الآلاف المؤلَّفة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز. وأنت خبير بأن هؤلاء لم تكن لِتُعْيِيَهُمْ تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان، وأئمة الفصاحة والبيان، لو كان الأمر من صناعة محمد ﷺ وإنشائه كما يزعم أولئك الخرَّاصون. فما بالك وقد خَرِسَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، وخَشَعَتْ أصواتُ الأجيال كلها من بعدهم.

ومعلومٌ أن النابغة الفذَّ في أيِّ عصر من العصور، يستطيع أقْرَانُه بيُسرٍ وسهولة، أن يُحاكوه مجتمعين ومنفردين في الشيء القليل، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو الشيء الكثير.

الجواب الثالث: أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه. ولأمكن أن يدَّعيَ به الألوهية فضلاً عن النبوَّة. ولكان مقدَّساً في نظر الناس وهو إلٰه، أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبيٌّ. ولما كان في حاجةٍ إذاً إلى أن يلتمس هذه القدسيَّة الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾[1]؟؟!.

الجواب الرابع: أن هؤلاء الملاحدة غاب عنهم أنَّهم يتحدَّثون عن أكرم شخصيَّة عرفها التاريخ طُهْراً ونُبْلاً، وذهلوا عن أنهم يمسُّون أسمى مقامٍ اشتهر أمانةً وصدقاً. فكان ﷺ إذا مرَّ بقومه يشيرون إليه بالبنان ويقولون: هذا هو الصادق الأمين. ثم صدروا عن رأيه، ورضوا بحكمه. والعقل المنصف قال ولا يزال يقول: ما كان هذه الأمينُ الصدوقُ لِيَذَرَ الكذبَ على الناس ثم يكذبَ على الله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

الجواب الخامس: أن هذه الشبهة وليدة الغَفلة عن مضامين القرآن العلميَّة، وأنبائه الغيبيَّة، وهداياته الخارجة عن أفق العادة في كافَّة النواحي البشرية، فرديةً كانت أو اجتماعيَّة. لا سيَّما أن الآتي بهذا القرآن رجل أميٌّ في أمَّة أميَّة، كانت في أظلم عهود الجاهلية. أضف إلى ذلك ما سجَّل القرآن على النبي ﷺ من أخطاء في بعض اجتهاداته، ومن عتاب نحسُّ تارةً بلطفه، وأخرى بعُنْفه ولو كان هذا التنزيل كلامه ما سمح أن يسجِّل على نفسه ذلك كله. ولكن الملاحدة سَفِهُوا أنفسهم؛ وزعموا زَعْمَ هذه البراهين اللائحة أن محمداً افترى القرآن على ربه. كذبوا وضلُّوا: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[1].

ذَيْلٌ لهذه الشبهة: ويتَّصل بهذه الشُّبهة شبهةٌ أخرى قد تعرض لبعض المأفونين. وهي أن هذا البُعْد الشاسع بين القرآن والحديث لم يجيء من ناحية أنَّ القرآن كلام الله والحديث كلام محمد: إنما جاءَ من ناحية أن محمداً كان له ضربان من الكلام: أحدهما يحتفل به كلَّ احتفال، ويُعْنَى مزيدَ العناية بتهذيبه وتنميقه وتحضيره، وذلك هو ما سمَّاه بالقرآن ونسبه إلى الله. وثانيهما يُرْسِلُهُ إرسالاً غير مَعْنِيٍّ بتحبيره وتحريره، وهو المسمَّى بالحديث النبوي. ثم يقولون لترويج شبهتهم هذه: إن ذلك ليس بدْعاً فيما نرى من آثار الأدباء والبلغاء، بل نحن نلحظ أن الأديب الواحد يعلو كلامه الصادر عن تأمل وعناية وروية، عُلُوًّا كبيراً عن كلامه المرسل على البديهة، حتى كأنهما كاتبين اثنين، بينهما بُعْدُ ما بين المشرقين.

والجواب الأول: أن هذه الشبهة الجديدة مبنيَّةٌ على قياس فاسد، وهو تشبيه أدباء ذاك العصر الزاهر الذي نزل فيه القرآن وسلمت فيه السليقة العربية، بأُدباء هذا العصر المولَّدين الذين فسدت لغتهم، وتَبَلْبَلَتْ ألسنتُهم. وشتَّان ما بين الطبقتين، ويا بعدَ ما بين العصرين!!

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً ... عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ ... وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

فالتفاوُت البعيدُ بين الكلام المرسَل والكلام المحبَّر، لم يظهر إلا منذُ فسد اللِّسان العربي، وتطرَّقت العجمة إلى المولَّدين من العرب وأشباههم. أما أُولئك العرب الخلَّص الذين كانوا يتكلمون العربية بالسليقة، فلم يك منهج أحدهم البيانيُّ مختلفاً هذا الاختلاف الكبير، تبعاً للإرسال والتحبير. بل العربيُّ القُحُّ نَهْجُه في الكلام نهجٌ واحد، هو نهج السليقة الصافية والطبيعة السليمة. ولم يكن التحبير ليذهب به مذهب الذبذبة التي تجعل له أسلوبين متباينين في كلامه، بل قصارَاه في تحبيره أن يُحيط بأطراف موضوعه دون أن يَنِدَّ عنه مقصدٌ من مقاصده، ودون أن يخرج عن أسلوبه الذي يَنْبَعُ من نفسه وتفيض به سَجِيَّتُهُ العَرْباء، ذلك الأسلوب الذي يُتْعِب أهلُ الفنِّ منا أنفسهم في محاكاته وهيهات أن يبلُغوا إلاَّ بعد طول عناء.

على أن مُعاناةَ ذلك العربي القُح إذا عانَى التنميق والتزويق، لم تكن لتزيد كلامه روعةً وحسناً. بل كانت تنزل به بمقدار ما يظن أحدنا أنها تصعد فيه. ولهذا كان العرب يَعافون من الكلام ما ظهرت فيه آثار الصنعة والتكلُّف ويعدون ذلك من التفاصُح النازل إلى مَهْواة العِيِّ والتنطع، كما كانوا مأخوذين بالجيِّد السَّلِس، وبالسهل الممتنع.

ولقد كان النبي ﷺ أبعدَ العرب عن هذا التعمُّل والتصنُّع والتحبير، حتى لقد نهى عن ذلك وناط به الهلاك والخسران. تدبَّر ما يرويه مسلمٌ وأبو داود من أن النبي ﷺ قال: «هَلَكَ المتنطِّعون»[1] والتنطُّع في الكلام: التعمُّق فيه والتفاصُح. وروى الشيخان أنه ﷺ جاءه رجل من هذيل يخاصمُ في دية الجنين، فقال: يا رسول الله كَيْفَ أَغْرَمُ دِيةَ مَن لاَ شرِب وَلا أكلَ. ولا نَطَقَ ولا استهلَّ. فمثلُ ذَلكَ يُطل. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّمَا هذا مِنْ إخوانِ الكُهَّان من أَجْلِ سَجْعِه الذي سَجَع»[2]. وفي رواية أنه قال: «أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الأعراب»[3]. وفي رواية أخرى أنه قال: «أَسَجْع

(١) صحيح مسلم، كتاب العلم: ٧؛ وسنن أبي داود، السنة: ١٥؛ والإمام أحمد في المسند: ١: ٣٨٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب: ٤٦؛ وصحيح مسلم. قسامة: ٣٦؛ وسنن أبي داود، ديات: ١٩؛ والنسائي، قسامة: ٣٩؛ ومسند الدارمي. ديات: ٢١، ومسند أحمد: ٢/ ٢٧٤.

(٣) مسلم، قسامة: ٣٨؛ وأبو داود، ديات: ١٩؛ والنسائي، قسامة: ٤٠، ٤١؛ والإمام أحمد في المسند: ٤/ ٢٤٥.

الجاهلية وكهانتها»[١]. فأنت ترى أنه ﷺ ذَمَّ هذا السجع المصنوع، وجعل صاحبه من إخوان الكُهَّان ومن جَهَلة الجاهلية وما ينبغي له ﷺ أن يذُمَّ شيئاً ثم يقع فيه! وحاشاه وحاشا بيانه الشريف، من هذا الإسفاف والتعمل الخسيس. ودونك السُّنة النبوية فاقرأ منها ما شئت، فلن تجد إلا جيِّداً مطبوعاً، ومعاذ الله أن تجد فيها متكلَّفاً مصنوعاً. والقرآن أعلى في هذا الباب وأجلُّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[٢].

الجواب الثاني: أن هذه الشبهة تخالف في أساسها ما هو واقعٌ معروف: ذلك أن القرآن الكريم منه ما نزل مُفاجأةً على غير انتظار وتفكير، وبدون تثبُّتٍ وتدبير، وهو أكثره. ومنه ما نزل بعد تشوُّفٍ واستشراف وطول انتظار، وهو أقلُّه. ومع هذا فأسلوبه الأعلى هو أسلوبه الأعلى؛ ونظمه المعْجز هو نظمه المعْجز؛ في الحالين على سواء.

تأمَّل ما جاء في سبب نزول قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣] وهو أن اليهود قالت لقريش سَلُوا محمداً عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، فسألوه، فقال: «ائتوني غداً أخبركم» ولم يَسْتثنِ، فأبطأ عليه الوحي حتى شقَّ عليه، ثم نزلت الآيات جواباً لتلك الأسئلة، بعد تلك المدَّة الطويلة التي قدَّرها بعضهم بأربعين يوماً، وأنت إذا قرأتها لن تجد فرقاً بين أسلوبها وأسلوب كثرة القرآن الغامرة التي نزلت مُبَاغِتةً مُفاجِئة.

وهذا الذي يقال في القرآن؛ يقال مثله في الحديث النبوي. فمنه ما كان وليد التفكير والتدبير والمشاورة والمداولة، كحديثه ﷺ في شؤون الحرب والصلح، ومنه ما كان وحْيَ الساعة وإرسالَ البديهة، كحديثه الكثير فيما هو ظاهر من أمور الدين. ومنه ما كان وَحْيَ الله إليه يهبط به الأمين جبريل، كحديث المعْتَمِر المتَضَمِّخ بالطيب، وقد جاء النبي ﷺ يسأله عن طيبه في عمرته هذه. فسكت النبيُّ ﷺ ساعةً حتى جاءهُ الوحي، ولَمَّا سُرِّيَ عنه قال: أيْنَ السَّائِلُ عن العُمْرَة فجيءَ به، فقال عليه

(١) أبو داود، ديات: ١٩؛ والنسائي، قسامة: ٤٠.
(٢) سورة القمر، الآية: ١٧.
(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

الصلاة والسلام: «أَمَّا الطِّيبُ الذي بكَ فَاغْسِلْهُ ثلاثَ مراتٍ. وأَمَّا الْجبَّةُ فَانْزِعْهَا وَاصْنَعْ في عُمْرَتِكَ مَا تَصْنَعُ في حَجِّكَ»[1]. رواه الشيخان.

نعرف هذه الظروف المختلفة لأحاديث رسول الله ﷺ. ولكنها مع اختلافها لم يختلف فيها الأسلوب النبوي، بل هو طرازٌ واحدٌ من أرقى الأساليب البشرية إن لم يكن أرقاها، وقلَّما تلحظ فيه تفاوتاً كثيراً. لا فرق في ذلك بين ما أرسله على البديهة، وما أجال فيه الرأي والاستشارة، وما نزل به وَحْيُ السُّنَّةِ، وما احتفل به احتفالاً ممتازاً، بالمواقف المشهودة، والمجامع المحشودة.

إذنْ هما نمطان متمايزان لا يشتبهان: نمط القرآن كله ونَمَط الحديث كله لكلٍ منهما مَسْحَةٌ وبيانٌ ودرجةٌ في الفوْق والسبْق، بينها وبين الأخرى بُعْد ما بين شأني الخالق والخلْق، وفرْقُ ما بين مَكانَتَي السيِّد والعبد، فالقرآن يمتاز بمسْحة بلاغية خاصَّة، وطابَع بيانيّ فريد، لا يترك باباً لأن يلْتبس بغيره أو يشتبه بسواه، ولا يُعطي الفرصة لأحدٍ أن يعارضه أو يحوم حَوْل حِمَاه مَنْ خاصَمه خُصِم، ومن عارضه قُصِم، ومن حاربه هُزِم. أما الحديث الشريف فهو وإن حَلَّق في جوِّ الفصاحة، وسما في جملته عن أساليب العرب، فإنَّه لا يزال في أرض العبودية لم يصل إلى سماءِ الإعجاز، وتُشبهه أساليب بعض خواصِّ أصحابه، وبينه وبين حِكَم العرب المأثورة قرابةٌ ماسَّةٌ وَشَبَهٌ قريب. بخلاف القرآن فإنه ليس كمثله بيان، لأنه كلام من ليس كمثله شيء. «وكلامُ الملوك ملوكُ الكلام».

خاتمة المبحث

نحسب أننا أفضنا في هذا المبحث، ولكننا نعتقد أن هذه الإفاضة واجبٌ لا بد منه، ما دمنا بصَدَد تسليح طلاَّبنا متخصِّصي الدعوة والإرشاد، وهم على أُهْبة النزول إلى ميادين الوعظ العامة، وفيها المؤمن والجاحد، والمتديِّن والملحد، والإلٰهيون والطبيعيون، وفيها ضحايا الطوائف المعادية للإسلام، وصَرْعَى المذاهب المتطرفة في العالم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي: ٥٦ والنسائي في المناسك: ٢٩؛ وأحمد بن حنبل في مسنده: ٤/ ٢٢٢.

ونلفت نظرك إلى أن بعض ما ذكرناه في أدلة الوحي العلمية، قد اعتمدنا فيه على أدلة جدلية يؤمن بها المنكرون أكثر مما يؤمنون بآيات الله.

وإن أردتَ التوسُّع في هذا فارجع إلى ما كتبه العلامة «محمد فريد وجدي» في المجلد، العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ، وما كتبناه من قبلُ في المجلد الخامس من مجلة الهداية الإسلامية سنة ١٣٥١ هـ، وما كتبه العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه: «النبأ العظيم». وبالله تعالى التوفيق.